مسعود أحمد اغبارية *

الإسرائيليون وانتفاضة القدس والأقصى: بعد أربع سنوات ونصف

مقدمة

استنادا إلى ما تم نشره في وسائل الإعلام الإسرائيلية من تقارير وآراء صحافيين وخبراء، يخطئ من يعتقد انه لا علاقة لانتفاضة القدس والأقصى بتصريح شارون في ايار ٢٠٠٣ الذي قال فيه: " أن نتحكم ب ٣,٥ مليون فلسطيني تحت الاحتلال هو أمر سيئ لإسرائيل، للفلسطينيين ولاقتصاد إسرائيل....التحكم في هذا العدد لا يمكن أن يستمر بدون حدود.. " وكذلك بقرار الحكومة الإسرائيلية في ٢٥ أيار ٢٠٠٣ الاعتراف بإقامة دولة فلسطينية الذي وصفه الصحافي غور الروئي بأنه "من ابرز القرارات التي تم اتخاذها في تاريخ الصراع منذ أكثر من ١٢٠ سنة".[١] حقا، تلعب انتفاضة القدس والأقصى دورا مهماً في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، ولها تأثيرات بعيدة المدى على مسيرة الصراع المستقبلية وحله في نهاية المطاف. فهي أكثر المواجهات عنفا بين الفلسطينيين والإسرائيليين تكبدت فيها إسرائيل خسائر فادحة بسبب استمرار احتلالها لمناطق الضفة الغربية وقطاع غزة لم يسبق لها مثيل وزادت القناعة في إسرائيل إن الاحتلال يكلف باهضا، وتكاليفه تزداد مع الوقت وتسدده مختلف الطبقات الاجتماعية في إسرائيل. أثبت الفلسطينيون على مدار أكثر من أربع سنوات ونصف أنهم قوة حاسمة لا يمكن تجاهلهم.[٢] فنجحوا وربما لأول مرة ان يعلموا الإسرائيليين درسا بأن الاحتلال امر مكلف، ليس فقط في الأرواح، وهذا ما قد تسمح به طبقة عليا او الطبقة الإشكنازية المتوسطة التي انخفض عدد ضحايا أفرادها في هذه الانتفاضة بشكل كبير عما كان في الحروب السابقة، ولكن في التكاليف الاقتصادية.[٣] اهم تطور ميز انتفاضة القدس والأقصى وخلق ردود فعل مكثفة في وسائل الإعلام

* محاضر في كلية بيت بيرل.

كانت العمليات العسكرية الفلسطينية التي انتهجها الفلسطينيون لأول مرة ليخلقوا توازن رعب بين إسرائيل وشعب فلسطين بمعنى زعزعة واقع الحياة وهدم الاستقرار في إسرائيل. على مدى أربع سنوات ونيف استطاع الفلسطينيون أخذ مبادرة الهجوم في مواجهات انقلبت إلى حرب عصابات بمواصفات قديمة/جديدة، أفضت إلى تطورات يرى فيها البعض فرصة متكافئة لبناء أساس لسلام عادل بين طرفي الصراع في الشرق الأوسط، وقد لا يلزم وسيط بينهما. إنها فرصة تاريخية لبدء عملية سلام حقيقية.

تستعرض هذه الدراسة تأثير انتفاضة القدس والأقصى على المجتمع الإسرائيلي وتتركز بالتحديد على تأثير العمليات العسكرية التي بدأها الفلسطينيون مع بدء هذه الانتفاضة، كما انعكست في الصحافة ومختلف وسائل الإعلام الإسرائيلية. وتأتي بمرور اربع سنوات ونصف على بداية الانتفاضة، وبدء موسم اعداد الكتب والمقالات حولها.[٤]

التسمية

خلقت انتفاضة القدس والأقصى نقاشا حول تسميتها، وتسمية العمليات العسكرية التي انتهجها الفلسطينيون بها. فيما يتعلق بتسميتها، هناك من يسميها الانتفاضة الثانية، ومن يسميها "انتفاضة الأقصى"، وهناك من يرى في اسم "انتفاضة القدس والأقصى" أكثر ملاءمة لأنها بدأت من القدس على اثر دخول شارون بشكل استفزازي ساحات المسجد الأقصى، ولكونها تحمل في طياتها روحا مقدسية ورؤية واضحة في المضمون والاتجاه. أما فيما يتعلق بالعمليات التي قام بها الفلسطينيون فهناك العديد من التسميات الأمر الذي يعود الى عاملين أساسيين: أولا، مدى المعرفة بالثقافة والمواقف السياسية والخلفية الأيديولوجية للطرف الفلسطيني، ونوعية النوايا والغايات المستهدف تحقيقها. فعلى سبيل المثال من يعتبرها "استشهادية"، يأخذ بعين الاعتبار "الاستشهاد" في الثقافة العربية وهي الاستعداد لتقديم النفس من اجل الخير العام، ومن يعتبرها "انتحارية" يود ان يلفها بثوب سلبي، على ان الذي يقوم به قد وصل حد اليأس من الحياة. ثانيا، العمليات الفدائية الجديدة هي ظاهرة جديدة تحمل بعدا عميقا في تطور الصراع وقد فاجأت او حتى أربكت الساحة السياسية محليا ودوليا. من بين هذه التسميات المتداولة في وسائل الإعلام: ١) انتحارية، ٢)استشهادية، ٣) تخريبية، ٤) قنابل بشرية، ٥)تفجيرية ، ٦)حزام ناسف، ٧)أجساد ناسفة. أكثرها استعمالا هي عمليات استشهادية، انتحارية، تخريبية، وقنابل بشرية.[٥] إذا استثنينا العمليات التي قام بها فدائيون فلسطينيون بهجوم بالأسلحة الرشاشة حتى الموت، يمكن استعمال التسمية "قنابل بشرية متحركة" أو عمليات "تفجيرية". في نفس الوقت، تستعمل التسمية "انتحارية" و "تخريبية" لأغراض دعائية في الحرب النفسية المضادة. فتصريحات منفذي العمليات التي تم تنفيذها ودونت اغلبها في أشرطة فيديو، وشهادات معتقلين كانوا ينوون تنفيذ مثل هذه العمليات، واستنتاج بحث قام به مجلس الأمن القومي الإسرائيلي يظهر انه لا يوجد بين الفلسطينيين الذين تم اعتقالهم في طريقهم للقيام بأعمال فدائية جديدة من لهم توجهات انتحارية، لا يساعد على استعمال التسمية "عمليات انتحارية".[٦] في الوقت الذي يرى به كثيرون ان تسمية موضوعية ومناسبة هي "عمليات استشهادية" " لتشمل جميع العمليات العسكرية سواء كانت من النوع الذي يقوم فيه الشخص بتفجير نفسه او تلك التي يقوم الشخص بمهاجمة موقع معين حين يكون احتمال الموت كبيرا او حتى مؤكدا، وتم تسميتها "**פיגועי הקרבה**" أي "عمليات استشهادية" بواسطة بروفسور شاؤول مشعال من جامعة تل ابيب والمتخصص في الشؤون الفلسطينية، إلا أننا سوف نسميها في هذه الدراسة عمليات فدائية جديدة.[٧]

رسالة الفلسطينيين إلى الإسرائيليين

مهما كانت الجهود الإسرائيلية لإخفاء الرسائل التي يحاول الفلسطينيون توصيلها للإسرائيليين، عبر وسائل الاتصال، ومهما اتسعت النظرة القائلة ان الثقافة السياسية في إسرائيل هي "ثقافة قطيع"، هناك طرق مختلفة لإيصال رسائل فلسطينية إلى الإسرائيليين والتأثير عليهم وتتركز حتى الآن بالأساس في كتابة صحافيين مهنيين يخاطرون بحياتهم في كثير من الأحيان. للرسائل تأثير على المدى القصير والمدى البعيد وخاصة حين نتحدث عن مجتمع يحصل صاحب القرار فيه على شرعيته بأصوات الناخبين. مع هذا لا توجد مؤسسة فلسطينية تدأب على عمل هذا بشكل منظم ومنهجي.

لأهمية دور الرسائل بين الأطراف المتصارعة، واستنادا الى المواقف الفلسطينية كما تجسدت في الصحف ووسائل الإعلام الأخرى ومواقف الصحافيين والكتاب، نوجز فيما يلي أهم الرسائل

بعد إحدى العمليات في إسرائيل

التي يريد الفلسطينيون منذ بداية انتفاضة القدس والأقصى إرسالها إلى الإسرائيليين قادة وافرادا: ١) انتفاضة القدس والأقصى هي رد وتطور طبيعي لمواجهة الاحتلال الإسرائيلي. ولا يوجد بديل أمامهم رغم أنهم على استعداد للموافقة على تهدئة من حين لآخر. ٢)استمرار الاحتلال مكلف ليس فقط للفلسطينيين ولكن للإسرائيليين على قدم وساق ويمس بأمنهم واقتصادهم. ٣) الإفراط الإسرائيلي في استعمال القوة هو دليل ضعف وليس دليل قوة. وان القوة العسكرية وحدها لا تجلب لسكان إسرائيل الأمان.[٨] ٤)تصرفات القادة في إسرائيل بل حتى فئات واسعة من الإسرائيليين، هي تصرفات الإنسان المجرم، حيث تناسوا ما يكتبون هم أنفسهم عن العبر التي يجب استخلاصها من التجربة التي مروا بها قبل ستين سنة، وتجاهلوا ما تقوله كتبهم إن من عاش على السيف مات بحده. ٥) الفلسطينيون هم الطرف الضعيف من الناحية العسكرية، الا ان عليهم ان يصنعوا من ضعفهم قوة ولا يوجد لديهم أي بديل. فالطرف الإسرائيلي يتجاهلهم، بل يسعى لمحاصرتهم ولتشريدهم من الوطن.[٩] ٦) الفلسطينيون قادرون على الرد، وبمصداقية عالية. وخلقت عملياتهم الفدائية الجديدة توازن رعب مع إسرائيل في أول مواجهة مسلحة وجهاً لوجه بين الطرفين منذ بدء الصراع بين الشعب الفلسطيني والحركة الصهيونية، وأصبحت قسماً من الثقافة السياسية الفلسطينية. ٧)صمود الشعب الفلسطيني وقدرات تحمله غير المسبوقة هي إثبات على اصالته. ٨) الشعب الفلسطيني مصر على نيل الحقوق والتي تتجسد في الانسحاب الإسرائيلي لحدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ وحل مشكلة اللاجئين وفق قرارات الشرعية الدولية. ٩) العناوين التي تحدثت عن انتهاء الانتفاضة كانت سابقة لأوانها.[١٠] ١٠)الجدار العازل غير شرعي ولن يمنع مثل هذه العمليات.

التأثير على الإسرائيليين

كان لانتفاضة القدس والأقصى تأثير كبير على الإسرائيليين، وما زال صدى تأثيرها حتى بعد ان أعلن الفلسطينيون تهدئة في شباط ٢٠٠٥ إذ يعتبرها الإسرائيليون أطول حروبهم وأكثرها خسائر، ويفسرون تطورات سياسية من خلال تأثيرها عليهم. فمثلا، يعتبر ٤٤٪ منهم ان انسحاب إسرائيل الأحادي الجانب من غزة ومن مناطق في شمال الضفة، إذا تم هذا كما يتصور البعض، انتصاراً للفلسطينيين، وكلما قوي الاحتجاج في إسرائيل على هذا الانسحاب كلما زاد هذا الشعور عند الفلسطينيين.[١١] ولكي يتجنبوا الخسائر المتعددة، تناقلت الأنباء أنه منذ الانتفاضة وبالتحديد منذ بدء العمليات الفدائية الجديدة هناك طوفان من الاقتراحات المقدمة الى وزارة العلوم في إسرائيل، من اجل الحصول على منح ومساعدات مادية لأبحاث واختراعات لمكافحة هذه الظاهرة، ولكن هناك صعوبات كبيرة في اختيار الاتجاه الصحيح.[١٢] الإسرائيليون لم يعهدوا هذا النوع من قبل، وربما لم يتوقعوه من الفلسطينيين، فهم يدفعون ثمن احتلالهم بشكل لم يسبق له مثيل. يلمسونه في بيوتهم حيث تزعزع الأمن والأمان ويخاف معظمهم على مستقبل أبنائهم. وما بناء الجدار العازل، وانتهاكه للقانون الدولي، وقيام شارون بعرض خطته الانسحاب الأحادي الجانب من غزة بدون تنسيق مع الفلسطينين، إلا تجسيد للذعر الذي حل بالإسرائيليين.

كتب زئيف شيف في صحيفة "هارتس" واصفا وقع الانتفاضة الفلسطينية على المجتمع الإسرائيلي ما يلي:

١) منذ بداية الصراع العربي الإسرائيلي لم تواجه إسرائيل مشكلة استراتيجية معقدة ومركبة مثلما تواجهه اليوم أمام العمليات الفلسطينية. ولم تفهم هذه الظاهرة حتى بواسطة علماء نفس، ولم يتم التوصل إلى أجوبة. وتسود بلبلة في أوساط القيادة العسكرية والسياسية على حد سواء. ٢) بينما تصل نسبة العمليات الفدائية الجديدة نسبة ٠,٦٪ من مجمل الأعمال الفدائية ضد إسرائيل

وصلت نسبة الخسائر التي أوقعتها هذه العمليات ٥٠٪ من مجمل الخسائر الإسرائيلية. ٣) الاجتياحات الإسرائيلية للضفة والقطاع منذ أواخر ايار ٢٠٠٢ لم توقف الأعمال الفدائية الجديدة ٤)الفلسطينيون وأعداء إسرائيل من العرب يشعرون ان إسرائيل قد دخلت مأزقاً استراتيجياً. ويصفون الأعمال الفدائية الجديدة ب" قنبلة الفلسطينيين النووية". ٥)نمت في المجتمع الفلسطيني ثقافة جديدة تعرف ب" ثقافة الاستشهاد بين". حيث بها يغنون ويمجدون الفدائي الفلسطيني الذي يفجر نفسه. وتمجد هذه الأعمال بين الصغار حتى في حضانات الأطفال. والمكانة الاجتماعية لعائلة منفذي هذه العمليات ترتفع أمام الناس.

على إثر العملية الفدائية الجديدة في القدس في ١١ حزيران ٢٠٠٣ توصلت صحيفة يديعوت احرونوت (١٢ حزيران، ٢٠٠٣) الى استنتاج مفاده ان " لا يوجد سياسة امن وخارجية لدى حكومة إسرائيل، وأننا لا نعرف ماذا نريد كأمة بعد ستين سنة من وجودنا هنا... الإرهاب يحدد أيامنا، يصاحب خطواتنا، يمسك برقابنا ويمص دماءنا ...اليأس ينتقل من جيل الى آخر، ولم نعد نشتري بضاعة الانتصار على الإرهاب." واقترحت الصحيفة مخرجا: تغيير القيادة السياسية في إسرائيل وإفساح المجال ل "قيادة مبادرة لا تتفرج على ما يشعر به الإسرائيليون بل تنظر الى خدمة مصالحهم في المستقبل."

الثمن باهض

استطاع الفلسطينيون في انتفاضة القدس والأقصى تكبيد الإسرائيليين ثمناً باهضا رغم محاولات حكومة إسرائيل التقليل من هذا بطرق عدة من بينها استغاثة القوى الاقتصادية الصهيونية في العالم لمساعدة إسرائيل بتركيزها ان "إسرائيل في خطر" الأمر الذي دفع بمستثمرين يهود لسكب أموالهم حين قدمت لهم تسهيلات مغرية مثل تسهيلات في الضرائب والحصول على مساحات ارض كبيرة. وهذا ما يمكن تسميته استثماراً أيديولوجيا. قال سيبر بلوستسكر، الخبير في الاقتصاد الإسرائيلي:[١٣] "بدأ التدهور في الاقتصاد الإسرائيلي من اليوم الأول الذي بدأت به الانتفاضة، وكلفت الاقتصاد الإسرائيلي خلال أربع سنوات على الأقل ٦٠ مليار شيكل. فقد مست الانتفاضة بالتدريج تقريبا جميع نواحي الاقتصاد الإسرائيلي. كلما زادت العمليات كلما زاد الكساد الاقتصادي، زادت البطالة واتسع الخوف المالي في إسرائيل. وفي المقابل، مع انخفاض عدد العمليات، بدأ النبض في الاقتصاد الإسرائيلي. واستشهد الكاتب بخبراء اقتصاديين إسرائيليين قالوا إن تدهور العلاقات مع الفلسطينيين يضر بشكل واضح بمجالات واسعة في الاقتصاد الإسرائيلي، وحتى الصناعات التقنية المتقدمة التي كانت تعتبر في الماضي مجالا حصينا من التأثير السلبي. ومن بين ما خسرته إسرائيل ما يلي:[١٤] ١) ١٢ مليار دولار، ٢)ارتفع مستوى المخاطر للاقتصاد الإسرائيلي من ٤,٦١ قبل الانتفاضة الى ٦,٤٤ زمن الانتفاضة، ٣) توقفت السياحة الطبيعية من أوروبا ومن الولايات المتحدة الأميركية والتي وصل تعداد السياح عام ٢٠٠٠ حوالي ١٠ مليون سائح لينخفض عام ٢٠٠٢ الى ٢,٦ مليون سائح. ويقول إبي إيله، رئيس اتحادات أصحاب الفنادق في إسرائيل: أنت تسمع من وكلاء السفر الأجانب، من شركات الطيران، ومن مرشدي الطرق ومن السياح أنفسهم ان السبب هو: "انتفاضة، انتفاضة، انتفاضة." ٤) انخفاض متزايد في عدد القادمين الجدد لإسرائيل منذ بداية الانتفاضة. فقد صرح شمعون بيريس في مقابلة تلفزيونية أن الانتفاضة قد منعت هجرة مليون يهودي إلى إسرائيل.[١٥] وكما يبين جدول ١ فهناك انخفاض كبير في عدد المهاجرين منذ بداية الانتفاضة في شهر تشرين الأول ٢٠٠٠. ٥) وانخفض الدخل للإسرائيلي حوالي ١،٨٠٠ دولار عما كان متوقعاً،[١٦] وارتفاع في نسبة الشركات الخاصة التي أعلنت إفلاسها عام ٢٠٠٤ بنسبة ٣٤٪.

جدول١ [١٧]

السنة	عدد المهاجرين بالآلاف
٢٠٠٠	٦٠
٢٠٠١	٤٣
٢٠٠٢	٣٣
٢٠٠٣	٢٣
٢٠٠٤	٢١

وهناك ثمن كبير دفعه الإسرائيليون في صحتهم النفسية. كشفت دراسة نشرت في دورية Medical Association Journal of the Americans في شهر اب، ٢٠٠٣ انه بعد عشرين شهراً من بداية انتفاضة القدس والأقصى في تشرين الأول، ٢٠٠٠، حدد ١٦٪ من الإسرائيليين أنهم مروا في تجربة مرعبة. وذكر أبي بليخ، رئيس الجمعية الإسرائيلية للعلاج النفسي، في تشرين الثاني ٢٠٠٣ ان ٣٠٪ من الإسرائيليين قد مروا بتجربة مريعة، سواء كانت تتعلق بهم او احد أقربائهم. وقال ان هذا لا يشمل هؤلاء الذين عاشوا التجربة

عملية بيت ليد

المرعبة عبر وسائل الاتصال.[١٨] وحول هذا الموضوع يقول الصحافي عكيفا الدار، ان النسبة قد ارتفعت عاليا، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الحوادث التي حدثت بعد عشرين شهراً من إجراء ذلك الاستطلاع.

في مقابلة مع رجل الأعمال الإسرائيلي ديفيد كابولسكي، صاحب مقاهي كابولسكي الشهيرة في إسرائيل، الذي هاجر إلى استراليا بعد نشوب انتفاضة القدس والأقصى، طالباً الراحة والهدوء ، قال فاقدا الأمل حتى في المستقبل: "أنا لا اعرف إلى أين تسير هذه الدولة، لا أرى مستقبلاً.. يقومون بارتكاب أعمال لم تكن مقبولة من قبل..أصبح الآن في إسرائيل أناس لاجئون فيها..يسكنون فيها بأجسامهم ولكنهم لا يسكنون بها بأرواحهم، هم مهاجرون خارجها. في هذه المرحلة في حياتي أريد أن أعيش في هدوء... ما يهمني هو ان لا يحاول احد إطلاق النار علي..." وما تهافت آلاف الإسرائيليين على سفارات دول شرق أوروبا بإسرائيل التي ضمت إلى الاتحاد الأوروبي في السنوات الأخيرة، كي يحصلوا على جنسيات أوروبية وبالتالي جوازات سفر أوروبية، الا مؤشر على عدم الراحة في العيش هنا. نشر مؤخرا في موقع Ynet.co.il، نتائج استطلاع بين زائري الموقع أن هناك ٥٥٪ من الإسرائيليين يريدون ترك البلاد. وفي استطلاع نشر في هارتس في ايلول ٢٠٠٣ حدد ان ٨٥٪ من الإسرائيليين غير راضين عن الوضع في إسرائيل. وحدد ٥٠٪ أنهم غير راضين عن أمنهم الشخصي.

التأثير على القيادة السياسية

رغم محاولات التمثيل والظهور وكأن الأمور تسير بشكل عادي، وهذه إحدى قواعد اللعبة في الصراع الدائر بين الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي، إلا أن القيادة السياسية الإسرائيلية ما زالت تعيش في لخبطة ولم تستوعب الهزة التي لاقتها نتيجة صمود الشعب الفلسطيني وتحمله الأسطوري، ونتيجة العمليات الفدائية الجديدة التي أتى بها الفلسطينيون، والتي ما زال "خبراؤهم" يدرسونها للتوصل الى حلول. وصفها وزير الدفاع الإسرائيلي بنيامين بن اليعازر في حينه: "انها السلاح الأكثر فتكاً الموجه ضدنا."[١٩] وقال قبله اسحق رابين حين شاهد عملية بيت ليد عام ١٩٩٤: "لا نستطيع منع شخص قرر الموت".[٢٠] رئيس دولة إسرائيل موشي قصاب، فاجأ الكثيرين حين صرح في ٢٦ تشرين ثاني ٢٠٠٤، أنه " يريد وقف بناء الجدار العازل بشرط ان يوقف الفلسطينيون الأعمال الإرهابية". حين قدم عضو الكنيست اليعازر كوهن الملقب "تشيتا" اقتراح قانون في الكنيست لفرض حكم الإعدام على منفذي العمليات الفدائية الجديدة، رد عليه ابراهام بورغ، في حينه رئيس الكنيست، انك تريد فرض حكم الإعدام على إنسان قرر إعدام نفسه بنفسه.

من جهة ثانية، حاول قادة إسرائيل استغلال الانتفاضة والنتائج التي أدت اليها من اجل الاستمرار في تحقيق أهدافهم، وقد اتبعوا الكثير من الوسائل من أجل تحقيق هذا. تقول الصحافية الإسرائيلية عميرة هاس: تم فهم العمليات الفدائية الجديدة في إسرائيل في الجو

حاول قادة إسرائيل استغلال الانتفاضة والنتائج التي أدت اليها من اجل الاستمرار في تحقيق أهدافهم، وقد اتبعوا الكثير من الوسائل من أجل تحقيق هذا. تقول الصحافية الإسرائيلية عميرة هاس: تم فهم العمليات الفدائية الجديدة في إسرائيل في الجو العام الذي عم إسرائيل عام ٢٠٠١، على أنها "خطر استراتيجي." وقد استغل متخذو القرار في إسرائيل هذا الشعور بالخوف عند الإسرائيليين ليتقدموا في تنفيذ مخططاتهم التي لم تتغير منذ عام ١٩٤٩ حيث اقروا بناء الجدار العازل من اجل سلب الأراضي الفلسطينية الخاصة بعد مصادرة الأراضي العامة وتحويلها إلى أراضي مستوطنات.

العام الذي عم إسرائيل عام ٢٠٠١، على أنها " خطر استراتيجي." وقد استغل متخذو القرار في إسرائيل هذا الشعور بالخوف عند الإسرائيليين ليتقدموا في تنفيذ مخططاتهم التي لم تتغير منذ عام ١٩٤٩ حيث اقروا بناء الجدار العازل من اجل سلب الأراضي الفلسطينية الخاصة بعد مصادرة الأراضي العامة وتحويلها إلى أراضي مستوطنات.[١]

وقد لا يترددون في استعمال سياسة التباكي والتمسكن من اجل هذا. فعبر استعراض الصحف العبرية في اليوم الذي عقدت به جلسة محكمة العدل الدولية للتداول في قضية الجدار العازل، نستطيع التوصل الى نتيجة واضحة:[٢] القادة الإسرائيليون، بعكس ما أبرزوه في الماضي من ثقة باللجوء الى القوة المسلحة والردود العاجلة، بدأوا يتعاطون لغة البكاء والاستجداء من العالم. بادرت إسرائيل الى مظاهرات ضد "الإرهاب" الفلسطيني في هاغ، وكان أحد شعارات مظاهرة منها " "Stop Palestinian Terrorism.

التأثير على الجيش الإسرائيلي

بعد أربع سنوات من استعمال العنف والقوة العسكرية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين ، توصلت لجنة مهنية إسرائيلية مكونة من أكاديميين وعلى رأسهم بروفسور يعقوب سيمان طوب من الجامعة العبرية ورئيس مركز اورشليم، ورجال مخابرات من ابرزهم أفرايم هاليفي، رئيس موساد سابق، تم تعيينها بواسطة رئيس الأركان موشيه يعلون، بأن هذه السياسة فاشلة ولا تساعد في ردع الجانب الفلسطيني عن مقاومة المحتل الإسرائيلي، وإنما تساعد على زيادة شعور الانتقام. وأكد الطاقم ان إسرائيل فشلت في "إقناع" الفلسطينيين بأن العنف الذي ينتهجونه ضد إسرائيل لا يخدم أهدافهم ويضر في تحقيق مطالبهم، بل زاد دعمهم له وزاد قناعتهم ان ليس لديهم ما يخسرونه. وقد اتهم التقرير الجيش الإسرائيلي بوضع الصراع في مسار العنف منذ اندلاع الانتفاضة في أيلول ٢٠٠٠، الأمر الذي ساعد على تجميع صفوف الفصائل الفلسطينية وساعد على زيادة اتساع ظاهرة القنابل البشرية المتحركة بشكل لم يسبق له مثيل لتشمل تنظيمات متدينة وغير متدينة. ويستنتج التقرير ان اللجوء الى العنف من جانب إسرائيل وصل إلى طريق مسدود.[٣]

هناك اقتناع في أوساط إسرائيلية ان إسرائيل فشلت في ما قامت به ضد الفلسطينيين. بعد العملية التفجيرية في تل ابيب بتاريخ ١٧ تموز ٢٠٠٢، كتب الوف بن ما يلي: "عملية التاسع من اب (العبري) قرب مستوطنة عمونائيل والعملية الانتحارية في تل ابيب، جعلت من تحقيق اهداف السور الواقي وطريق الإصرار وهماً."

في موقع صحيفة يديعوت احرونوت على الانترنيت (Ynet.com) أكد الصحافي عوفر شيلح ما يلي: كلنا يعرف ان للجيش الإسرائيلي التصريح لعمل ما يريده بالفلسطينيين، وكلنا يعرف ان كل ما يراه الجيش الإسرائيلي مناسبا وكل ما يعمله لن يحل المشكلة. وفي نفس الموقع أكد الخبير العسكري في الصحيفة ران أدلست ما يلي: "الأحداث الأخيرة في قطاع غزة، الهجوم الإسرائيلي الواسع النطاق على شمال القطاع، هي نتاج إحباط إسرائيلي من جانب الأجهزة الأمنية والحكومة الإسرائيلية اللتين لم تعودا قادرتين على حسم حرب العصابات مع الجانب الفلسطيني والتي بها عدد الضحايا أصبح المقياس الأساسي. في هذه الحرب لا يوجد احتمال لانتصار إسرائيل لأن قدرة الفلسطينيين على تحمل الضحايا والمعاناة أكبر من قدرة الطرف الإسرائيلي. ويستخلص ادلست الى القول: "لا يوجد للفلسطينيين طائرات هيلوكبتر، ولا دبابات ولا سلطة لتطوير السلاح، ولكن يوجد عندهم قدرة تحمل، استيعاب

أشار الدكتور ياغيل ليفي، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة الإسرائيلية المفتوحة، ومؤلف كتاب "جيش آخر لإسرائيل"، الى ان الانتفاضة أدت إلى انخفاض مكانة الجيش الإسرائيلي كما حدث للجيش الأميركي على اثر حرب فيتنام. هناك هبوط في المكانة الاجتماعية لأفراده حيث ان حوالي ٧٥٪ من القتلى ينتمون إلى المجموعات السكانية "المهمشة" في المجتمع الإسرائيلي، والتي لم تكن تشكل في الماضي جزءاً من العمود الفقري للجيش الإسرائيلي.[٢٤] وبهذا فإن مقولة "جيش الشعب"، التي ظل الزعماء والمؤسسون الصهيونيون للدولة والجيش الإسرائيلي يتفاخرون بها في العقود الماضية، أضحت مجرد وهم يهذي به الحالمون.

الضربات، ووقت."

أشار الدكتور ياغيل ليفي، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة الإسرائيلية المفتوحة، ومؤلف كتاب "جيش آخر لإسرائيل"، الى ان الانتفاضة أدت إلى انخفاض مكانة الجيش الإسرائيلي كما حدث للجيش الأميركي على اثر حرب فيتنام. هناك هبوط في المكانة الاجتماعية لأفراده حيث ان حوالي ٧٥٪ من القتلى ينتمون إلى المجموعات السكانية "المهمشة" في المجتمع الإسرائيلي، والتي لم تكن تشكل في الماضي جزءاً من العمود الفقري للجيش الإسرائيلي.[٢٤] وبهذا فإن مقولة "جيش الشعب"، التي ظل الزعماء والمؤسسون الصهيونيون للدولة والجيش الإسرائيلي يتفاخرون بها في العقود الماضية، أضحت مجرد وهم يهذي به الحالمون. ويعيد ليفي عدم وجود حركات احتجاج كما كان في لبنان، مثل أربع امهات الى هذا التطور.

هناك من يعتبر ان حركة الاحتجاج التي بدأت بعد مدة قصيرة من نشوب الانتفاضة بين صفوف الإسرائيليين عام ٢٠٠١ بإرسال رسالة الى رئيس الوزراء بتوقيع ٦١ شابا إسرائيليا عبر قسم منهم عن رفضهم الخدمة العسكرية في المناطق المحتلة والقسم الآخر رفضوا الخدمة العسكرية إطلاقا احتجاجا على ما تقوم به إسرائيل في المناطق المحتلة، لتستمر بشكل متزايد في رسالة الأمهات مع بداية السنة الخامسة من الانتفاضة ما هي الا مؤشر عن الألم الذي يعيشه الإسرائيليون. ومن بين الأعمال الاحتجاجية والمطالبة بعدم الخدمة العسكرية في المناطق المحتلة ما يلي: أرسلت في عام ٢٠٠٢ رسالة وقع عليها ٢٤٥ شابا طالبوا بعدم الخدمة في المناطق المحتلة. ونشرت في كانون ثاني ٢٠٠٢، رسالة الـ ٥٠ ضابطاً وجندياً إسرائيلياً الذين طالبوا بعدم الخدمة العسكرية في المناطق المحتلة. وعلى أثرها تم تأسيس حركة "الجرأة برفض الخدمة" التي لاقت دعما من قبل مئات الإسرائيليين. في شهر ايلول ٢٠٠٣ بعث ٢٧ طيارا إسرائيليا برسالة يعلنون انهم يعارضون ما يقوم به الجيش في المناطق المحتلة وأكدوا انهم سوف يعارضون القيام بقصف أهداف وسط احياء مدنية فلسطينية. وفي كانون الأول ٢٠٠٣ نشرت رسالة ١٣ جندياً وضابطاً من الوحدة الخاصة في الجيش الإسرائيلي (سييرت مطكال) موجهة الى رئيس الوزراء يعلنون بها رفضهم الخدمة في المناطق المحتلة. وكان اخر تلك الاحتجاجات إرسال رسالة الأمهات في نهاية ايلول ٢٠٠٤ تحث طلبة صفوف الثواني عشر في المدارس الإسرائيلية على عدم الخدمة في المناطق المحتلة. وقامت حركة "الجرأة لرفض الخدمة" في مظاهرة كبيرة في تل ابيب في تاريخ ٥ تشرين الأول ٢٠٠٤ طالبوا بها بعدم الخدمة في المناطق المحتلة.

وكي نرى مدى تأثير العمليات الفدائية الجديدة على الجيش الإسرائيلي نورد ما يلي: أولا، عبر حاييم رامون، في حينه رئيس لجنة الخارجية والأمن في الكنيست، عن عجز الجيش الإسرائيلي عن منع العمليات التفجيرية في العمق الإسرائيلي حين صرح: قدم منفذا العمليتين التفجيريتين في تل ابيب في كانون الثاني ٢٠٠٣ من نابلس التي تحتلها كتيبة المظليين الإسرائيلية الكاملة. ثانيا، وصفت صحيفة يديعوت احرونوت عملية فدائية جديدة في تشرين الثاني ٢٠٠٣ حين هاجم مسلح فلسطيني حاجزا إسرائيليا قرب مدينة بيت لحم:[٢٥] "مرة أخرى تقع حادثة قاسية. كان هناك سبعة جنود على الحاجز. اقترب فلسطيني وكان مسلحا وبدأ بإطلاق النار من بعد ٥ أمتار. قتل اثنين. وحينها بدأت سلسلة من الأخطاء، دخل المقاتلون في خوف ودهشة وتخبط، وفتحوا نيرانهم في الاتجاهات غير الصحيحة. واستطاع الفدائي الهروب بدون أي مضايقة." إنها قصة من الصعب ان يقرأها الكثير من الإسرائيليين الذين تعودوا طيلة

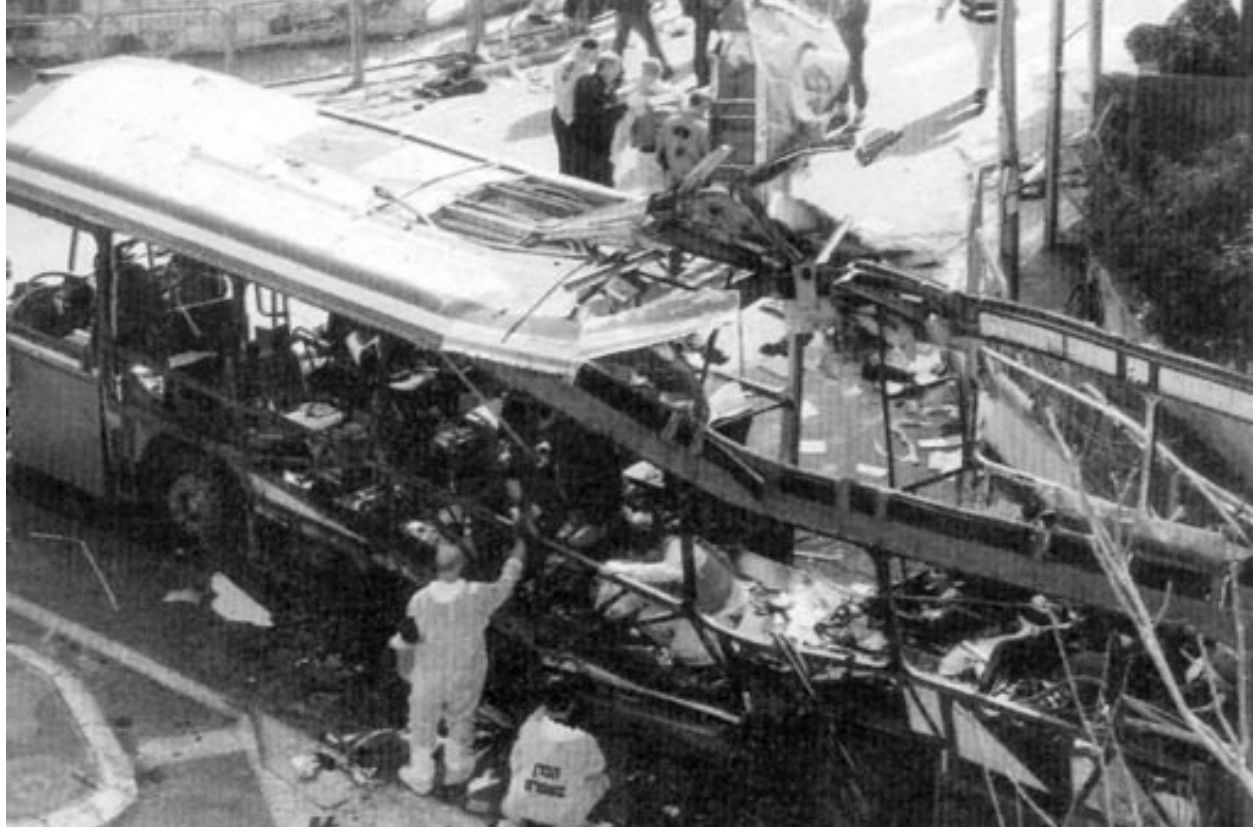

عملية تفجير حافلة في القدس

أعمارهم ان الجيش الإسرائيلي هو جيش مقدام لا يهاب، يؤمن برسالة الدفاع عن "ارض إسرائيل" التاريخية.

عوامل التأثير

هناك ثلاثة عوامل تأثير مهمة: أولا، مواصفات العمليات العسكرية التي انتهجها الفلسطينيون في انتفاضة الأقصى، ثانيا، مواصفات منفذيها، ثالثا، قدرات الشعب الفلسطيني على تحمل الصعوبات والتي يمكن قياسها بالقدرة الفردية والجماعية لتحمل الخسائر اعتمادا على نظم اجتماعية واقتصادية يتم بها تقاسم الألم وتكفل الزاد اليومي، بها يكتفي الإنسان بالقليل. سوف نستعرض فيما يلي بإسهاب العاملين الأولين. وصف ايلى بسطمان، مدير مكتب قناة Fox News الأميركية هذه العمليات بانها "مميزة، إنتاج مميز، غير معروف، وبدل تأثيرها قواعد اللعبة." وكان العنف ابرز مواصفاتها لثلاثة أسباب أساسية: ١) قيام إسرائيل بانتهاجه بشكل لم يسبق له مثيل، ٢) امتلاك الفلسطينيين السلاح وقدرات عندهم لتطوير قسم منه، ولو كانت متواضعة، ٣) اتساع الهوة بين ما كان متوقعاً على اثر اتفاق اوسلو وبين ما هو موجود على الساحة حيث زادت الغطرسة الإسرائيلية وزادت النشاطات الاستيطانية في المناطق المحتلة.

مواصفات العمليات

اتصفت العمليات العسكرية التي بدأت على اثر انتفاضة القدس والأقصى بثلاث مواصفات أساسية جمعت فيها القديم والحديث. ١) عمليات تفجيرية بها يقوم الإنسان بتفجير نفسه في مكان ما حيث الهدف إيقاع خسائر بالطرف الآخر. مع ان هذا النوع قد بدأ في النصف الأول من التسعينيات من القرن الماضي، مثلا تم تنفيذ إحداها حين فجر فدائي نفسه في ١٩تشرين الأول، ١٩٩٤ في تل ابيب، وتبعتها عملية بيت ليد في كانون ثاني ١٩٩٥ التي على أثرها حسم اسحق رابين موقفه للحل: "نحن هنا وهم هناك". يبدو ان هذا النوع من العمليات هو السلاح "الفتاك" الذي كان يلمح به فلسطينيون بعد عودتهم على اثر اتفاقيات اوسلو. ففي ٨/١٠/٢٠٠٠ اكد ضابط فلسطيني في نابلس: "إن انضمام المستوطنين الى الجيش وزيادة اعمال البطش التي يقوم بها الجيش تخلق حربا. وفي الحرب، رغم عدم التوازن في ميزان القوة العسكرية بيننا وبين الإسرائيليين، سوف نستخدم سلاحاً لم نستخدمه بعد. وأقتبس الضابط قولا لجبريل رجوب، في حينه، رئيس قوات الأمن الوقائي في الضفة الغربية: "باستطاعة السلطة نقل الموت الى المدن الإسرائيلية." ٢)هجمات مسلحة تقليدية مباغتة بالرشاشات وأسلحة أخرى. فقد بلغ عدد الهجمات وفقا لتقرير المخابرات الإسرائيلي في أواخر ايلول ٢٠٠٤ أكثر من ١٣ الف عملية مسلحة. ٣) استخدام عبوات ناسفة جانبية كان له اثر في زيادة الذعر في أوساط الجيش الإسرائيلي وخاصة بعد ان تم تدمير أربع دبابات إسرائيلية، ثلاثة منها من نوع "مركابا" التي كتب عنها أنها حصينة أمام أي سلاح مضاد. ٤) إطلاق قذائف الهاون وصواريخ القسام وأنواع أخرى على أهداف عسكرية ومدنية إسرائيلية.

العمليلات الفدائية الجديدة: نقل العنف إلى داخل اسرائيل

بعد بدء الانتفاضة أصبحت هذه العمليات خيار كثير من الفصائل الفلسطينية لتصبح قسما من الثقافة السياسية. ومع مرور الوقت، زاد التنسيق، ولم يقتصر على الإعداد والتخطيط بل شمل التنفيذ أيضا. ووصل المشاركون في عمليات معينة الى ثلاثة تنظيمات مثل ما حدث في عملية غزة حيث اشتركت كل من حركة فتح وحركة الجهاد الإسلامي ولجان المقاومة الشعبية ضد الاحتلال. دراسة لأدبيات التنظيمات المختلفة نجد انها تلتقي في مسارب كثيرة، وان الأهداف التي حددها الشيخ أحمد ياسين مؤسس حركة حماس لهذه العمليات، مشتركة لجميعها والتي من أبرزها:[٢١] ١) إرسال رسائل لإسرائيل بلغة تفهمها حيث انها لا تفهم الا لغة القوة. ٢) إلحاق خسائر بإسرائيل. ٣) إدخال الرعب في قلوب الإسرائيليين الذي يعني "اخافة الطرف الاخر مع ابراز الجأش والتحمل والصبر من الجانب الفلسطيني". أكد الشيخ ياسين ما يلي: "نحن نموت ونزغرد ونخرج بمسيرات ونواجه بالحجر لكن العدو يولي ويهرب ويخاف. الجندي الذي يركب في الدبابة والقنبلة والصاروخ في يديه خائف. إذن صار توازن رعب: الإسرائيلي يمشي في السوق والشارع وهو خائف، يذهب للمدرسة وهو خائف.. ويتحدث الشيخ عن مكاسب مهمة فيقول: قدم الفلسطينيون ٤٥٠ شهيدا وقتل من إسرائيل ما يقارب ٦٠-٧٠ قتيلا خلال ٤-٥ شهوراً، إذ انه في جنوب لبنان كان يقدم خلال العام ٢٠-٣٠ قتيلا؛ ففي أربع شهور خسرت إسرائيل ما خسرته في لبنان خلال ثلاث سنوات. "

كان هناك اهتمام بتنفيذ عمليات جديدة في مناسبات او تطورات سياسية معينة. فعلى سبيل المثال، حدثت عملية قرب سجن مجيدو في الخامس من حزيران، ٢٠٠٢. لتبعث رسالة مضمونها معارضة لاحتلال الخامس من حزيران، ١٩٦٧. وحدثت عملية القدس في ٢٢ شباط، قبل يوم من عقد الجلسة الأولى لمحكمة العدل الدولية لتداول قضية الجدار العازل. بعد يوم عن الإعلان عن وصول احدث الطائرات الاميركية الحربية المقاتلة F-١٦-I، الى إسرائيل، نفذ الفلسطينيون عملية تفجيرية في ٢٢ شباط، ٢٠٠٤ في القدس. وبعد نشر خبر مفاده ان إسرائيل سوف تحصل على خمسة آلاف قنبلة "حكيمة" تزن حتى طن من المتفجرات، نفذ الفلسطينيون عمليات تفجيرية مختلفة من بينها عملية التلة الفرنسية في ٢٢ ايلول ٢٠٠٤ وعملية موراغ في ٢٣ ايلول ٢٠٠٤.

الدعم الاجتماعي لمنفذي العمليات: ما يربك الإسرائيليين هو وجود إعجاب بهذه العمليات عند الفلسطينيين حيث يعتزون بها ويرونها طريقا مؤثرا وخاصة حين يرون ويسمعون دعم عائلات منفذي العمليات أنفسهم. على اثر عملية بئر السبع في الأول من ايلول ٢٠٠٤ لم يكن الحزن هو الشيء الوحيد المخيم على خيمة العزاء في الخليل وإنما كان هناك نوع من التقدير لمنفذ العملية حيث وزعت الحلوى وتمنى قسم من الأطفال ان يصبحوا مثل منفذ العملية. جميع من تحدث مع مراسل قناة ١٠ الصحافي تسفي يحزقئيل أيد مثل هذه العمليات. اشار استطلاع للرأي العام نشر في ١٠ كانون أول ٢٠٠٢، ان ٨٠,٦٪ من الفلسطينيين يؤيدون استمرار الانتفاضة بوسائل عسكرية ومدنية بعد ان كانت نسبتهم ٧٢٪ في شهر كانون الأول، ٢٠٠١، و٧٢٪ في اذار،٢٠٠٢.

فبعد مقابلات أجرتها صحيفة الشرق الأوسط مع عائلات فدائيين توصل الصحافي عبد الله عيسى الى القول: "تكونت ثقافة خاصة لدى جيل جديد من الفلسطينيين تعرف باسم ثقافة الاستشهاديين.... لان هناك قناعة ان الدوافع من وراء هذه العمليات هي مبدئية وتلبية لنداء الوطن والشعب الفلسطيني وانتقام على أعمال قتل قامت بها القوات الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني وبحق أقرباء وأعزاء.. بالإضافة الى هذا ان المسلم لا يهاب الموت، لانه يقرب ساعة لقاء الانسان لربه."

كان هناك توسيع لرقعة المناطق الجغرافية التي نفذت بها العمليات الفدائية الجديدة وذلك لخلق رعب عند عدد كبير من الإسرائيليين فشملت مناطق من صفد في الجليل الى بئر السبع في الجنوب. وكان هناك توزيع للعمليات على فترات زمنية متواصلة كي يعيش الإسرائيليون في عدم امان وقتا طويلا. دخول الانتفاضة عامها الخامس، ١٤٦٠ يوما، هو مؤشر على إصرار فلسطيني لمقاومة الاحتلال خاصة بعد أن نجح شارون في الانتخابات العامة في إسرائيل عام ٢٠٠١ على أثر وعد الإسرائيليين انه سوف يخمد الانتفاضة في فترة لا تزيد على ١٠٠ يوم.

كان هناك اهتمام بتنفيذ عمليات فدائية جديدة في مناسبات او تطورات سياسية معينة. فعلى سبيل المثال، حدثت عملية قرب سجن مجيدو في الخامس من حزيران، ٢٠٠٢. لتبعث رسالة مضمونها معارضة لاحتلال الخامس من حزيران، ١٩٦٧. وحدثت عملية القدس في ٢٢ شباط، قبل يوم من عقد الجلسة الأولى لمحكمة

العدل الدولية لتداول قضية الجدار العازل. بعد يوم عن الإعلان عن وصول احدث الطائرات الاميركية الحربية المقاتلة F-١٦-I، الى إسرائيل، نفذ الفلسطينيون عملية تفجيرية في ٢٢ شباط، ٢٠٠٤ في القدس. وبعد نشر خبر مفاده ان إسرائيل سوف تحصل على خمسة آلاف قنبلة "حكيمة" تزن حتى طن من المتفجرات، نفذ الفلسطينيون عمليات تفجيرية مختلفة من بينها عملية التلة الفرنسية في ٢٢ ايلول ٢٠٠٤ وعملية موراغ في ٢٣ ايلول ٢٠٠٤.

حين تكون هناك صعوبات يلجأ الفلسطينيون الى ابتكار اساليب جديدة تفاجئ الإسرائيليين. وقد اعترف بهذا تقرير نشرته المخابرات الداخلية الإسرائيلية. من بين العمليات التي اعتبرها المعلقون أمرا جديدا كانت عملية ميناء أسدود التي وقعت في تاريخ ١٤ آذار، ٢٠٠٤. من أبرز مواصفاتها خروج الفدائيين من قطاع غزة المحاصر بسور منيع، واستعمال مواد شديدة الانفجار، واختيارهم موقعاً استراتيجيا مهماً حيث تخزن به مواد خطرة قد يسبب تفجيرها مقتل الآلاف. قال داني روبنشطاين في صحيفة هارتس معقبا على العملية: تنبع أهميتها انها اختارت هدفاً استراتيجيا من نوع جديد يستطيع بها الفلسطينيون الادعاء أنهم لا يستهدفون في العمليات الفدائية الجديدة مدنيين وإنما اهدافاً استراتيجية من الدرجة الأولى. وعلقت صحيفة معاريف بسخرية: استطاعوا الوصول الى مكان مهم واستراتيجي بسهولة ولم يتمكن ١٥٠ حارساً منع العملية حتى بعد إنهائهم تدريبات ميدانية على الحراسة قبل أسبوع وحصولهم على ميداليات. وأضافت، استنادا الى مصادر في الشرطة الإسرائيلية، نوع المتفجرات قوية جداً ولم يسبق ان تم استعمالها من قبل.

عدم انتهاج العفوية في النشاط العسكري وبذل الجهود للحصول على معلومات استخبارية سليمة والتركيز على اهداف عسكرية كما حدث في عملية موراغ في قطاع غزة في ٢٣ ايلول، ٢٠٠٤. وقد اشارت صحيفة يديعوت احرونوت في ٢٤ أيلول ٢٠٠٤ الى ان السؤال الصعب هو "كيف استطاع المخربون الحصول على معلومات دقيقة عن التحركات في الموقع العسكري. ولماذا لم يتمكن الحراس ووسائل الحماية والمراقبة من كشف المخربين قبل دخولهم الى منطقة ممنوعة الدخول، وإطلاق النار عليهم؟"

استطاع الفلسطينيون خلق مصداقية لأقوالهم وتهديداتهم. بعد محاولة اغتيال عدد من قادة حماس في ٨ أيلول، ٢٠٠٣، وعد قادة الحركة بالرد. ولم يتأخر كثيرا. فكان بعد يومين حين فجر فدائي نفسه في محطة ركاب قرب معسكر صرفند، وعملية أخرى في مقهى هيلل في القدس. وبعد محاولة اغتيال الدكتور عبد العزيز الرنتيسي في ١٠ حزيران ٢٠٠٣، توعدت حماس بعملية نوعية موجعة. فكانت في القدس بعد يوم. وبعد ان قامت إسرائيل في ١٤ ايلول ٢٠٠٤، بإغتيال ثلاثة قادة من كتائب شهداء الأقصى في جنين، توعد زكريا زبيدي قائد كتائب شهداء الأقصى في المنطقة بالرد، فكان بعد ساعات حين فجر فدائي نفسه قرب مدينة قلقيلية. يقول المعلق الصحافي في صحيفة هارتس تسفي برئيل: "حماس والجهاد لم يترددوا ابدا عن الرد على كل محاولة اغتيال إسرائيلية. بدل الاغتيال الفردي هم يقومون بعملية اغتيال جماعية."

لم تقتصر العمليات على منفذ واحد، بل شملت عمليات مزدوجة وحتى عمليات اشترك فيها ثلاثة فدائيين. أمثلة: عملية بيت ليد عام ١٩٩٥، عملية التلة الفرنسية في أيار، ٢٠٠٣، عملية بئر السبع في ايلول ٢٠٠٤، عملية اسدود في اذار، ٢٠٠٤، ولجأوا إلى عمليات ثلاثية كما حدث في موراغ في ٢٣ ايلول ٢٠٠٤. تحليل دقيق للأمور يرينا ان هناك تركيزاً على مثل هذه العمليات في السنة الرابعة للانتفاضة وقد يعود هذا الى زيادة الحماس عند الفلسطينيين للمشاركة. تقرير تلفزيوني في التلفزيون الإسرائيلي يبرز هذا التوجه بشكل واضح.[٢٧]

مواصفات منفذي العمليات

هناك اهتمام كبير في إسرائيل لمعرفة مواصفات جماعية مشتركة (profile) لمنفذي العمليات الفدائية الجديدة كي يتم تحديد استراتيجية مضادة. ولم يتم وضع مواصفات دقيقة مشتركة لهم، لانهم عكسوا التركيبة الاجتماعية للشعب الفلسطيني. فمنهم من هو متدين، ومنهم من هو علماني، ومنهم من هو متعلم، ومنهم من هو محدود التعليم، ومنهم من هو متزوج وله اولاد ومنهم من هو اعزب، ومنهم من هو شاب ومنهم من هو في منتصف العمر ان لم يكن كهلاً، ومنهم ابن القرية ومنهم ابن مخيم لاجئين ومنهم ابن مدينة. نشرت صحيفة هارتس تقريرا استنادا إلى خبراء ان هناك ضياعاً حول المواصفات المشتركة. اعتقدوا أنهم متدينون، ثبت بعد ذلك ان هناك استشهاديين من الجبهة الشعبية ومن حركة فتح؛ اعتقدوا انهم فقط من الرجال فكان هناك حوالي عشرين عملية فدائية جديدة قامت بها نساء، او شاركت بها. وأضافت الصحيفة ان الذين تم اعتقالهم منهم لا يمانعون في التحدث مع الباحثين والمحققين، لأنهم يعرفون ما الذي قاموا به، ولا تردعهم سنوات السجن الطويلة. وصل الأمر

إلى ان قام وزيرا الدفاع في إسرائيل زمن انتفاضة الأقصى بنيامين بن اليعيزر، وشاؤول موفاز، بزيادة اسرى فشلوا في الوصول الى أهدافهم او شاركوا في تخطيطها، تم القبض عليهم، بهدف كما حدده موفاز نفسه: "فهم دوافع ما يقومون به"، وطلب موفاز من قادة الجيش الكبار إجراء مقابلات مماثلة.

بعد عملية القدس في ١١ حزيران، ٢٠٠٣ أشار تقرير إسرائيلي ان هناك مواصفات مشتركة لأبناء مدينة الخليل الذين نفذوا قسما من هذه العمليات: جميعهم كانوا لاعبين في فرقة كرة القدم "مسجد الجهاد."، اغلبهم يسكنون في حارة قريبة من مستوطنة تل ريميدة الاستيطانية في الخليل. خمسة منهم من عائلة القواسمة، آخر من عائلة الجعبري وثلاثة من عائلات معروفة ايضاً، اغلبهم لم يكن لهم عضوية فعالة في حركة حماس، درس قسم منهم في معاهد عليا. حول انتمائهم الطبقي: قسم منهم من العمال مثل حمزة القواسمة الذي اشتغل كعامل بناء عادي، قسم من الطبقة الوسطى مثل باسم التكروري الذي أدار دكانة العائلة، قسم من الأثرياء مثل محسن القواسمي صاحب اكبر مكتبة في الخليل، وقسم من المثقفين.

بعد تفجير فدائية نفسها في مطعم ماكسيم في حيفا في ٢٠٠٣/١٠/٣ صرح عادي الدار، مراسل الشؤون العربية في القناة العاشرة الإسرائيلية: "قبل سنة قابلت فدائية كانت عازمة للقيام بعملية انتحارية وكان الانطباع انها حكيمة، واعية بما قامت به وتريد من وراء ذلك الانتقام مما تقوم به إسرائيل وتريد ان تصبح بطلة بين صفوف شعبها."[٢٨] ويقول احد القادة الميدانيين الإسرائيليين الذي واجه فدائيين ثلاثة في معسكر موراغ في قطاع غزة في ٢٣ ايلول ٢٠٠٤ انهم قد حاربوا " "بشجاعة فائقة" لم يتمكنوا من قتل الفدائي الثالث حتى بعد ثلاث ساعات بعد ان احضروا جرافات ودبابات أطلقت النار بغزارة عليه فاردته قتيلا. وصفت صحيفة إسرائيلية الحادث الذي هاجم به فدائي حاجزا قرب مدينة بيت لحم:[٢٩] "مرة اخرى تقع حادثة قاسية. كان هناك سبعة جنود على الحاجز. اقترب فلسطيني وكان مسلحا وبدأ بإطلاق النار من بعد ٥ أمتار. قتل اثنين. وحينها بدأت سلسلة من الأخطاء الفادحة، دخل المقاتلون في خوف ودهشة وتخبط، وفتحوا نيرانهم في الاتجاهات غير الصحيحة. واستطاع الفدائي الانسحاب بدون أي مضايقة"

قال القائد الإسرائيلي الذي تم قتله في عملية موراغ قبل ساعات من موته، طال بردوغو (٢٢ سنة) لمراسلي مجلة "بمحانيه" للجيش الإسرائيلي ما يلي: "إننا في حالة حرب. تكفينا غفلة ١٠ دقائق حتى يتسلل مخرب من تحت أنوفنا." ومشيرا الى التكتيكات الجديدة التي بدأ الفلسطينيون ابتكارها، قال القائد الميداني الإسرائيلي في معسكر موراغ: "العملية سارت في مراحل مختلفة: المرحلة الأولى اطلاق الرصاص على كل من يظهر امامه من جنود، في المرحلة الثانية: تفجير مواد متفجرة بجنود في طريقهم اليه، وفي المرحلة الثالثة، السيطرة على جنود رهائن في احدى غرف النوم وتفجير نفسه معهم."

يتمتع منفذو العمليات بمستوى عال من الانضباط والوعي السياسي. في مقابلة صحافية قالت احدى الفدائيات التي القي القبض عليها قبل تفجيرها ما يلي: "إنني مؤمنة بأن ما قمت به هو صادق وسعيت ان أتفجر وسط جنود إسرائيليين.... أنتم صنعتم بنا هذا التوجه. الاحتلال هو السبب." كتبت صحيفة يديعوت احرونوت حول عملية القدس في ٢٢ شباط، ٢٠٠٤ ما يلي: "فشل حارسان متخصصان في فحص الباص، والمسافرون فيه، في كشف منفذ العملية رغم انه كان يجلس في منتصف الحافلة وفي يده حقيبة مليئة بالمتفجرات. الشاب لم يظهر اضطراباً او قلقاً ،وهو مثل زميله الذي فجر نفسه في كانون الثاني ٢٠٠٤ في القدس، لم "يستعجل في تفجير نفسه." انتظر في هدوء حتى حانت اللحظة الحاسمة." وعلق احد ضباط الشرطة على هذا قائلا: "هناك إمكانية اننا أمام استراتيجية جديدة. ظهر كمسافر عادي، وحتى السائق، صاحب التجربة السابقة في معرفة المشبوهين في مثل هذه العمليات لم يستطع ملاحظته." وهناك مثال اخر على ارتياحهم واطمئنانهم. في مقابلة مع موظفة الاستقبال في الفندق الذي نزل به السائحان اللذان نفذا عملية ملهى مايك إكسبرس في ١ ايار ٢٠٠٣ في تل ابيب، قالت ما يلي: "كان عذبا التحدث معهما...لم يكن يظهر عليهما أي توتر او ضجر.. لم الاحظ أن شيئاً سيئاً سوف يعمل من قبلهما".

ونفذت عملية فدائية جديدة في نتانيا في ٣٠ اذار ٢٠٠٣، بواسطة فدائي لم يتم الشك في أمره. حيث وصف في التلفزة الإسرائيلية بأنه "شاب يلبس الجينس على أحدث طراز، يربي نصف لحية، ولم يثر الشك عند احد. فجر نفسه بين مجموعة من الجنود."

يقوم بهذه العمليات أناس ينتمون الى عائلات معروفة في المناطق المحتلة مثل عائلة "القواسمي" و "الجعبري" و "تكروري" و "ضراغمة" "سمهدانة". وليس كل من فجر نفسه يعود الى مخيم لاجئين. ريم صلاح، على سبيل المثال هي طالبة جامعية، كانت تسكن في حي الزيتون في مدينة غزة ومتزوجة ولها اولاد. وقسم كبير منهم

من طلبة الجامعات. كذلك علم ان هناك علاقات اجتماعية "أصدقاء العمر" بين منفذي عمليات القدس والخليل في ١٨ ايار، ٢٠٠٣.

منفذو هذه العمليات ذوو أعمار مختلفة قد تصل من ١٥ سنة، كما نشر عن اعتقال فتى من اليامون عازم على تفجير نفسه في العفولة في ٢٢ ايلول ٢٠٠٤، وقد تزيد عن الخمسين سنة كما نشر عن منفذ عملية في نهاريا، حبيش من قرية ابو سنان في الجليل الغربي.

شاركت المرأة بهذه العمليات بشكل فعال ووصل عدد من فجرن أنفسهن حتى نهاية السنة الرابعة للانتفاضة، ثماني فتيات. الانتماء الى ثلاثة تنظيمات أساسية: الجهاد الإسلامي، حماس، وفتح. وقد سمحت حركة حماس بمشاركة المرأة في السنوات الأخيرة بعد ان زاد استعداد النساء للقيام بمثل هذه العمليات، وبعد ان زادت العقبات أمام الرجال.

يتم تصوير منفذي العمليات قبل خروجهم حيث يحددون رسائلهم، ويدلون بوصاياهم وهم في الزي العسكري الكامل للتنظيم المسلح التابعين له.

شهادات تقلق حكام إسرائيل

انتشار الظاهرة بين الفلسطينيين تقلق الإسرائيليين بشكل كبير. قالت عميرة هس، مراسلة هارتس: "الكل في غزة يتحدث عن منفذي العمليات الفدائية الجديدة.... يعرفونهم استشهاديين لأسباب كثيرة منها: الارتباط بالشهادة وهي في الدين الإسلامي أسمى أنواع الموت والتي تدخل الانسان بعد موته في الجنة. المسلمون يدعون الله ان يعطيهم الشهادة لانهم يريدون ان يضمنوا حياة سعيدة في العالم الآخر....الأسباب للقيام بمثل هذه العمليات ليس اليأس ولكن رد فعل على ما تقوم به سلطات الاحتلال الإسرائيلي." يقول احد السكان الذي يدافع عن هذه العمليات: "اذا كنت ميتاً فهذا امري، ولكن اذا كنت حياً وانا ميت فما طعم الحياة؟" وقال احد الطلاب لشهادة الدكتوراه في الجامعة الإسلامية في غزة: "من الناحية النفسية يجب ان نفرق بين من يقوم بالانتحار بسبب معاناة نفسية وبين الاستشهادي الذي يقوم بما قام به وهو سعيد ويحب الحياة. هو انسان قوي وواثق من نفسه".

نشرت صحيفة هارتس الإسرائيلية قصة ثلاثة من الشباب الفلسطينيين الذين قرروا القيام بأعمال تفجيرية، لكن لم ينجحوا في تنفيذ مأربهم فتم اعتقالهم. قال احدهم: "السبب هو تصرفات جنود الاحتلال... في أول أيام منع التجول في مدينتهم لم يجرؤ احد على الخروج من المساكن، وحتى الى ساحات البيوت، ومن خرج تم إطلاق النار عليه..ولم نجد الا كلباً في الشوارع. لم يطلق الجنود النار عليه... فكرت مع نفسي.. إما ان نعيش حياة اقل قيمة من حياة الكلاب، ام نموت لنكون شهداء."

قصة حسين ابو النصر من قطاع غزة معروفة ونشرت في الصحف العالمية: طلب من والدته ان تستدعى له بالشهادة أثناء اداء الحج. ففعلت ذلك وهي على جبل عرفات. وقالت أمه: "انا احتسبته عند الله فداء للإسلام وان يجعله شفيعاً لنا يوم القيامة. يوم تفجره أجهشت بالبكاء وعندما وضع في القبر اطلقت زغرودة مدوية."

قالت اخته: "كان الشهيد حسين من رواد المساجد وامتاز بالزهد في الحياة وقوة الجسم، وليلة استشهاده كان أكثر هدوءاً من قبل ونظرته كانت نظرة مودع للدنيا تمتزج فيها جميع المشاعر والأحاسيس ترى فيها الحزن على فراق أهله والفرح بلقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم واحبائه واصدقائه ممن سبقوه في جنات الفردوس."

الوصية التي تركها احمد عليان من طولكرم كانت ما يلي: "إن إسرائيل تذبح الفلسطينيين والقدس محتلة والعرب لم يحركوا أي ساكن، لذلك علينا نحن الفلسطينيين ان نقدم أرواحنا ونستشهد بأي شكل في سبيل الله للدفاع عن القدس." قال والده: "كان الشهيد احمد من حفظة القرآن الكريم. حفظه وعمره ١٣ سنة. ومنذ ذلك اليوم أطلق عليه لقب "الشيخ احمد".

في مقابلة مع صابرين ابو عمارة التي القي القبض عليها قبل تفجير نفسها، أجرتها يديعوت احرونوت، ذكرت ما يلي: " آسف لضياع الفرصة لتنفيذ العملية، وأن التجنيد كان تطوعا، الهدف هو قتل عدد كبير من الإسرائيليين حتى يحسوا بالألم...أنتم تقتلون أطفالنا، ونحن سنقتل أطفالكم....لست غاضبة على منال التي جندتنى . بالعكس. أنني ممنونة لها. لقد ساعدتنى ان أقوم بواجبي."

تقول منال المسؤولة عن تجنيد صابرين: "لقد فقدنا الخوف من الموت...الهدف من القيام بالعملية هو القيام بواجبي الوطني في النضال الوطنى. ولا يوجد هناك مجال للتحدث عن التعايش المشترك...السبب الأساسي هو الاحتلال.. إسرائيل هي بؤس كبير استطاعت تدمير حياتنا... دمر الاحتلال عمل أخوتي في دكانتين. واليوم من يخرج خارج البيت لا نعرف هل ومتى يعود...عرفنا منذ البداية أن الأحزمة الناسفة التابعة للجهاد لا تحظى بتعويض مادي.

وعرفنا ان التعويض الوحيد هو الجنة."

في مقابلة صحافية مع نسيم زعاترة من سكان الرام، القدس، الذي اعترف انه رتب ونسق عملية باص ٢ في القدس التي نفذها رائد المسك، احد نشطاء حماس في الخليل في شهر ايلول ٢٠٠٣ مع قناة التلفزيون العاشرة الإسرائيلية، حدد ما يلي: "اعتبر ما قام به رائد المسك، حيث فجر نفسه في باص وقتل أكثر من ١٥ إسرائيليا، عملا لائقا، لأنه رد فعل على الجرائم التي تقوم بها إسرائيل... ان ما قام به كان ضد عدو يهودي يحتل ارضي." وعندما سأله المراسل "هل فقد أرضاً؟ ، أجابه، انه شخصيا لم أفقد أرضا، إلا انه يعبر عن موقف الشعب الفلسطيني أجمع.

عاكساً الروح التي سيطرت على مقاتلي مخيم جنين قال المعتقل ثابت مرداوي، (٢٦ سنة) من جنين واحد قيادات الجهاد الإسلامي في منطقة جنين، بعد توجيه اتهامات له بقتل إسرائيليين أمام المحكمة الإسرائيلية: "لا أتأسف على ما قمت به. من يتأسف حين يتم قتل نساء وأطفال فلسطينيين؟ قمت بما قمت به من اجل التحرر من الاحتلال. نحن شعب يعيش تحت الاحتلال—احتلوا لنا الناس والشعب والهواء".

وسائل الإعلام مهمة ومؤثرة

اغلب الصحافة الإسرائيلية، ناهيك عما تقوم به صحيفة هارتس الإسرائيلية من وقت لآخر، وخاصة بواسطة الصحافي غدعون ليفي، والصحافية عميرة هس، لا تفتش بشكل مناسب عما يجري في المناطق المحتلة ولا تجري تحقيقات صحافية، وهي لب العمل الصحافي المهني، وإنما تعمل من اجل ترسيخ مفاهيم الحكام في إسرائيل، كي يستمروا في سياستهم، حتى ولو كانت ظالمة ولم يسبق لها مثيل كما يقول بعضهم ممن تركوا البلاد باحثين عن الأمن والاستقرار.[٣٠] وقد دأب الإعلام في هذه الحرب على نزع الصفة الإنسانية عن الفلسطينيين كي يصنع أرضية لتشريع كل رد فعل إسرائيلي. وهذا ما حدث بالفعل. استعملت إسرائيل كل أسلحة البطش، من بينها قصف مدنيين، الامر الذي اعتبره المستشار القضائي للحكومة الإسرائيلية في شهر اب ٢٠٠٤ ، جريمة حرب.(خليل ريناوي، ٢٠٠٣)

اغلب الصحافة الإسرائيلية، ناهيك عما تقوم به صحيفة هارتس الإسرائيلية من وقت لآخر، وخاصة بواسطة الصحافي غدعون ليفي، والصحافية عميرة هس، لا تفتش بشكل مناسب عما يجري في المناطق المحتلة ولا تجري تحقيقات صحافية، وهي لب العمل الصحافي المهني، وإنما تعمل من اجل ترسيخ مفاهيم الحكام في إسرائيل، كي يستمروا في سياستهم، حتى ولو كانت ظالمة ولم يسبق لها مثيل كما يقول بعضهم ممن تركوا البلاد باحثين عن الأمن والاستقرار.

لقد نجح شارون في خلق وضع طوارئ عند الإسرائيليين وخلق شعور ان الشعب محاصر والحرب قريبة منهم، تؤلمهم، ولا مجال للتساؤل، الأمر الذي مكنه من تجنيد وسائل الإعلام الإسرائيلية بالكامل لأن المجتمع الإسرائيلي، في طبيعته، مجتمع مجند يرى الأمور من خلال منظور الامن وأن كيانه في خطر الزوال او في حصار. على اثر اقالة الصحافي الإسرائيلي ميرون ربابوت من صحيفة يديعوت احرونوت كشف مقال في ايلول ٢٠٠٣ ان "التعليمات لصحيفة يديعوت احرونوت ان تكون هناك "يد خفيفة" على وصف اعمال رئيس الوزراء". يقول افنر ينيف (١٩٩٣) ان عامل اعتبار الأمن في المقدمة وخاصة على اثر ترسيخ الرأي ان وجود الدولة نفسه في خطر، قد حسم المعادلة تجاه الأمن على انه هو المحور الأساسي في الاعتبار. ويقول غاد برزيلاي، (١٩٩٨) ان المجتمع الإسرائيلي هو "جمهور مجند" يشكل الأمن في نظره قيمة عليا، ومعادلة التعامل مع الطرف الثاني تسير في المنظور الأمني. ويقول بروفسور زئيف شتيرنهل ان الثقافة السياسية في إسرائيل هي "ثقافة قطيع."

رغم الانحياز الواضح لوسائل الإعلام الإسرائيلية لموقف الحكومة الإسرائيلية في الصراع، وترديدها شعارات محرضة ضد الفلسطينيين، وتركيزها على ما يريد شارون توصيله للإسرائيليين إلا أننا وجدنا من وقت لاخر مقالات أسبوعية تصدر من وقت لآخر، وبرامج وتقارير إخبارية بثت على شاشة التلفزيون الإسرائيلية معبرة عن الموقف الفلسطيني ولها وقع كبير على الإسرائيليين من بينها تقرير لسليمان الشافعي، مراسل القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي في قطاع غزة الذي حدد به ما يلي: [٣١] ١) أكثر من ٧٠٪ من أطفال فلسطين يريدون القيام بأعمال فدائية جديدة. ٢) ابرز التقرير معاناة الفلسطينيين اليومية واكد ان هذه الظروف تجعل الفلسطينيين يؤيدون بل ويشاركون في الأعمال الفدائية الجديدة. ٣)هذه الظاهرة ليست من خصوصيات حماس فقط، بل تلاقي دعما من

كتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة فتح، مؤكدين، وفق التقرير انه "لا يوجد هنا فتح وحماس وغيرها من المنظمات...نحن كلنا مقاومون للاحتلال."

مواقف صحافيين إسرائيليين: انعكاس التأثير

فيما يلي سوف نستعرض مواقف العديد من الصحافيين الإسرائيليين أو قصصا مما كتبوه عن انتفاضة القدس والأقصى ونشرت في الأيام الأخيرة للسنة الرابعة أو الأيام الأولى في السنة الخامسة لانتفاضة القدس والأقصى وهي تعكس بذلك رأيا عاما في إسرائيل:

حول ما دار في مخيم جنين كتبت الصحافية عدا اوشبيز ما يلي: " بعد ان انتهى منع التجول ، هربت أم علي عويس مع أولادها لقرية قباطية. في نفس الوقت دخل زوجها الى مخيم جنين للتفتيش عن عائلته. قيل لها من قبل اناس انهم يعتقدون ان ابا علي، زوجها، قد مات. بعد عدة ايام رجعت الى المخيم للتفتيش عنه. احد قال لها ان ابا علي قد أصابه الجنون. هو يجول في المخيم يلطم على وجه ويجوح: أولادي ماتو، أولادي ماتوا". وبعد اللقاء من جديد مع زوجها قالت: "كالعادة، كنت سعيدة ومليئة غضباً على كل ما مر علينا. لا أريد ان افكر كيف سيكون رد إسرائيليين لو عاشوا ما جربناه خمس دقائق فقط. ماذا ربح شارون من هذه الحرب. انه إنسان أحمق ، يرسل جيشه لمقاتلة مدنيين! .... ما كان في مخيم جنين كان كارثة إنسانية على عدة مستويات؛ كان نضالا للبقاء، وكان استنتاجا إنسانيا.. ان ما قام به شارون كان عملاً أحمقا."

بعد ان قام الفلسطينيون بتنفذ ٥ عمليات فدائية جديدة خلال ٤٨ ساعة في النصف الثاني من شهر ايار ٢٠٠٣، بالإضافة إلى عملية تل ابيب في الأول من ايار ٢٠٠٣، وبعد فترة لم تكن هناك الكثير من العمليات التفجيرية صرح الصحافي يوئيل ماركوس: "ليس فقط أننا لم نقض على الإرهاب بإسرافنا في استعمال القوة ضد الفلسطينيين، بل زدنا من كراهيتهم وجهوزيتهم ضدنا. يوجد الان متطوعون للأعمال التفجيرية أكثر مما توجد أحزمة ناسفة..هم يستطيعون الوصول إلى كل مكان... الفلسطينيون اصحاب مبادرة ونحن ندافع عن أنفسنا." وقال في مكان آخر: "بدأت الانتفاضة، حرب الاستنزاف الأطول في تاريخ إسرائيل، عام ١٩٨٧، بحجارة وسكاكين وقنابل حارقة، وبعد مدة استراحة تخللتها اتفاقية اوسلو..أصبحت حرب عصابات قاتلة...تشبه ما حدث في لبنان...وهي مسألة وقت حتى نرى هنا صواريخ الكاتيوشا، الصواريخ المحمولة على الكتف، اَر. بي.جي، وتفجيرات ضخمة..سوف يزيد الإرهاب إن لم ننسحب بشكل سلس من المناطق كما انسحبنا من لبنان بعد احتلال ١٨ سنة."

وكتب في وقت آخر: "لم يعد هناك انتحاريون مقابل أموال.... لم يعد هناك انتحاريون يؤمنون ان هناك ٧٢ حورية في الجنة، ولكن ما يميزهم اليوم هو أنهم أصحاب ا رادة قتالية عالية، طلاب جامعات وخريجون وأبناء الفئات التي تعيش برفاهية...سياسة شارون صنعت الانتحاري المزود اليوم بدافع وطني ودافع انتقام شخصي. المحامية التي فجرت نفسها في مطعم ماكسيم في حيفا تم تجنيدها لمنظمة الجهاد في بيت العزاء لأخيها وابن عمها التي قامت السلطات الإسرائيلية بقتلهم."

علق المعلق العسكري لصحيفة هارتس، زئيف شيف، على عملية تل ابيب في الأول من ايار، ٢٠٠٣ بما يلي: "رغم النجاح في إفشال أعمال فدائية، لا يوجد توقف في انضمام الفلسطينيين الى حلقات الإرهاب، الأمر الذي يشير إلى معنويات ودافعية عالية."

علق الصحافي الإسرائيلي اوري افنيري على ظاهرة العمليات الفدائية الجديدة : "أنا انظر الى هذه الظاهرة بشكل واقعي. وأسأل نفسي سؤالين: هل كان أمام الفلسطينيين بديل؟ وهل كان بإمكان ياسر عرفات منع هذه الظاهرة؟ أجيب لكلا السؤالين بالنفي."[٣٢]

كتب الصحافي الإسرائيلي غدعون سامت ما يلي:[٣٣] بعد مرور أربع سنوات عن الانتفاضة الفلسطينية تعيش إسرائيل في خوف وقلق شديد، وهي تتخبط. ويكشف الوضع حقيقتين: الأولى كشفت ممارسات إسرائيل طبيعة الصراع في المنطقة وهي ان بناء دولة إسرائيل يتم عبر تدمير البيوت العربية. والحقيقة الثانية: فشل الجيش الإسرائيلي في إيجاد حل للعمليات الفلسطينية.... واغلب الإسرائيليين اليوم منشغلون في مستقبل أولادهم. الجديد في هذه الانتفاضة أن مقاومة الفلسطينيين لم تقتصر فقط عبر الصمود واستعمال المقاومة السلمية كالعصيان المدني، واستعمال الحجارة، وإنما لجأوا إلى الهجوم على المواقع، والمصالح الإسرائيلية في كل مكان سواء في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ أو داخل الخط الأخضر.

كتب الصحافي الإسرائيلي غدعون سامت ما يلي:[٣٣] بعد مرور أربع سنوات عن الانتفاضة الفلسطينية تعيش إسرائيل في خوف وقلق شديد، وهي تتخبط. ويكشف الوضع حقيقتين: الأولى كشفت ممارسات إسرائيل طبيعة الصراع في المنطقة وهي ان بناء دولة إسرائيل يتم عبر تدمير البيوت العربية. والحقيقة الثانية: فشل الجيش الإسرائيلي في إيجاد حل للعمليات الفلسطينية.... واغلب الإسرائيليين اليوم منشغلون في مستقبل أولادهم. الجديد في هذه الانتفاضة أن مقاومة الفلسطينيين لم تقتصر فقط عبر الصمود واستعمال المقاومة السلمية كالعصيان المدني، واستعمال الحجارة، وإنما لجأوا إلى الهجوم على المواقع، والمصالح الإسرائيلية في كل مكان سواء في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ أو داخل الخط الأخضر.

بعد تغطية ثلاث سنوات لانتفاضة الأقصى سماها ايتسيك سبان، مراسل يديعوت الذي أصيب في عملية موراغ في ٢٣ أيلول ٢٠٠٤، في فخذه وعلى الصفحة الأولى من جريدته بعد يوم من العملية بأنها، "الحرب المفزعة". وأضاف: " في هذه الحرب لا يوجد "جريح خفيف او متوسط" كل جريح هو جريح خطير."

بعد عملية بئر السبع الازدواجية في ٣١ اب ٢٠٠٤ ، كتبت صحيفة يديعوت احرونوت على أعلى صفحاتها في القسم الأول ب "عاد الرعب." والعنوان الرئيسي للصحيفة التي تم إصدارها بشكل صحف آخر الأسبوع بعنوان ما يلي: "الكابوس عاد من جديد." مؤكدة: "بعد ١٩٠ يوماً من الهدوء النسبي عادت الدولة كاملة الى أحلام الخوف والرعب الذي أرادت ان تنساه". يئير لبيد، الصحافى البارز في الصحيفة قال: "حتى امس كانت الحياة طبيعية. وتفجر الوهم في انفجارين في بئر السبع." وعلق الخبير العسكري للصحيفة اليكس فيشمان ما يلي: "حطم الانفجار كامل فرضية الصيف الهادئ.. بعد أربع سنوات من سيل الدماء...يجب ان نقلق من اخذ العبر والتعلم عند الطرف الثاني..سوف تزداد اللعبة تعقيدا في المستقبل."

اقتبس الصحافي ايتان هابر قول احد قادة الجيش الإسرائيلي البارزين: "أمس الأول تمت تصفية مجموعة من المخربين من رفح بلغ عدد أعضائها ٥، امس تمت تصفية مجموعة من نابلس شملت على ٣، واليوم تمت تصفية مجموعة من جنين، والان بقي أمامنا مجموعة إرهابية من ٣,٥ مليون فلسطيني في الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧...الإرهاب يخرج من الباب، ليعود من الشباك. وهو يشبه الهيدرا التي إذا قطع رأسها نمت رؤوس بديلة وفي وقت قصير."

يقول الصحافي الإسرائيلي عوزي بنزيمان: حين نتحدث عن العمليات التفجيرية، للفلسطينيين تفوق في القوى البشرية، الدافعية، التسهيلات. الأقمار الاصطناعية وصواريخ المضادة للصواريخ لا تستطيع عرقلة او منع إنسان يفتش عن محطة للمواصلات او مطعم."

بعد قيامه بتقمص المسلم المتدين حيث مارس شعائر الدين مع مجموعة من المسلمين مدة معينة، توصل الصحافي الإسرائيلي اليهودي المتدين يوسي كلاين هليفي الى نتيجة: "للإسلام نجاح هائل في القضاء على الخوف من الموت" هذا ما خلق أرضية لثقافة القنابل البشرية...هذا ما يجعل من هذا السلاح خطيراً في عقول الكثير من الإسرائيليين وغيرهم في هذا العالم المتغير."

وجه الصحافي يغئال سارينا من على صفحات يديعوت احرونوت الرسالة التالية لرئيس الوزراء: "سيدي رئيس الوزراء، لقد منعت حدوث ألف عملية، الا انك، بما قمت به، ساعدت الفين على التكون....نحن في فترة يصبح بها الحارس رئيس المخابرات، وجنرال الجيش سياسيا. لقد نجحت في بناء سجن كبير يصل عدد نزلائه ٣ مليون شخص. بعد ثلاث سنوات وبعد قتل الآلاف، لم نحقق الانتصار..."

بخطوة لم يسبق لها مثيل وجهت مجموعة "كتلة السلام" رسالة الى الجنرالات في الجيش الإسرائيلي من على صفحات الصحف العبرية شملت على ما يلي:

حضرات جنرالات الجيش الإسرائيلي، تحية وبعد،

قصفتم بالطائرات، قصفتم بالمدفعية، قمتم باغتيالات، عذبتم، دمرتم بيوتاً، قلعتم أشجارا، صادرتم، سلبتم، سجنتم، اعتقلتم، أبعدتم الى مناطق أخرى وطردتم، قمتم باحتلال مدن، قمتم بالاستيلاء على حارات كاملة،

سيطرتم على قرى كاملة، فرضتم الإقامة الإجبارية، أقمتم

الحواجز... جربتم كل شيء. لم يتبق أمامكم أي شيء. إنكم مفلسون. حان الوقت لكي تستقيلوا من الجيش".

أساليب إسرائيلية في مواجهة انتفاضة القدس والأقصى

استمرار الانتفاضة أكثر من أربع سنوات ونصف، والإصرار الفلسطيني الواسع وبين قطاعات مختلفة من الشعب على استمرار الانتفاضة، رغم استعدادهم للموافقة على تهدئة من وقت لآخر، هو دليل على فشل ذريع لاستراتيجية إسرائيل في مواجهة الانتفاضة والتي من ابرز معالمها:

أولا: الارتكاز على القوة المسلحة الحديثة والمتطورة. ثانيا، استعمال الندب ونشر الحزن بين الجميع بواسطة تركيز بث وسائل الإعلام، المكتوبة والمرئية والمسموعة، لعل هذا يفيد في تخويف الإسرائيليين، وفي توحيد صفوفهم. ثالثا، استعمال الكذب لتحقيق مكاسب سياسية. فبعد عملية بئر السبع في ٣١ آب، ٢٠٠٤، قامت حكومة إسرائيل باتهام سوريا بأنها من وراء العمل كي تخلق الانطباع ان الفلسطينيين وحدهم لا يقومون بمثل هذه الأعمال. وحين صرح شارون على اثر عملية تفجيرية في القدس إن "الضحايا قد سقطت لسبب واحد، لأنهم من اليهود، " رد عليه الصحافي الإسرائيلي غدعون سامت، بما يلي: "هذا كذب..إنه محاولة لتغطية التناقضات وعدم الوضوح في طريقته لحل الصراع." رابعا، انتهاج الحيلة والخدعة، فبعد اغتيال قادة من الحركات الإسلامية تاركة الانطباع إنها لا تريد المساس بقادة كتائب شهداء الأقصى، بدأت باستهداف قادة كتائب شهداء الأقصى التابعة لحركة فتح. خامسا، منع الصحافيين والمصورين من القيام بوظائفهم في ساحة المعارك خشية توثيق ما يدور على ساحة الواقع. وقد استخدم في سبيل هذا الكثير من الوسائل من بينها اغتيال الصحافيين أنفسهم ليبلغ عدد الصحافيين الذين تم اغتيالهم ٧ صحافيين من بينهم محمد بيشاوي (٢٠٠١/٧/٣١) ، عثمان إبراهيم قطاناني (٢٠٠١/٧/٣١)، رفائيل تشيرلو، ايطاليا (٢٠٠٢/٣/١٣)، أمجد العلمي (٢٠٠٢/٣/١٨)، عماد الزهرة (٢٠٠٢/٧/١٢)، عصام التلاوي (٢٠٠٣/٩/٢٢)، جيمس ميلر، بريطاني (٢٠٠٣/٥/٢)، نزيه دروزة (نيسان، ٢٠٠٣). وذكر شهود عيان ان قتل الصحافي جيمس ميلر كان بشكل متعمد رغم انه رفع راية بيضاء ولبس لباسا واضحاً كتب عليه "صحافة".

سادسا، قتل وتعطيل نشيطي سلام مؤيدين للفلسطينيين مثل منظمة التضامن العالمي. من أبرزهم راشيل كوري (٢٠٠٣/٣/١٦)، بريان أيبيري (أصيب برصاص في نيسان، ٢٠٠٣)، توم هوريندال (جرح في رأسه في نيسان، ٢٠٠٣). سابعا، القيام بأعمال غير انسانية ضد السكان الفلسطينيين. الامثلة كثيرة ونكتفي بشهادة عيدي دغان، من هرتسليا:[٣٤] "قرأت ما كتبه غدعون ليفي حول موت الطفل عمر موسى مطر (الطفل ٤١١، ملحق هارتس في ١١ نيسان، ٢٠٠٣) كشاهدة للكثير مثل هذه الحوادث، مثل التي حدثت وأنا شاهد عليها قرب حاجز قلنديا، يوم الجمعة الموافق ٢٨ من اذار، ٢٠٠٣. لقد كان حدث مؤلما وموجعاً جداً، لا يمكن ان يصدقه احد. وصلت أنا وصاحبتى إلى الحاجز للقيام بواجبنا لعضوات في منظمة "محسوم ووتش" (מחסום–WATCH) وهي مجموعة من النساء الإسرائيليات اللواتي يعارضن الاحتلال ويقمن بأعمال مراقبة يوميا في الحواجز في منطقة القدس وفي الضفة الغربية. ولم نشاهد مرة واحدة المناظر التي أصبحت شيئا مألوفاً: أولاد يلقون الحجارة تجاه الجدار العازل الذي يقيمونه قرب قلندية، ويحرقون الإطارات. بعد عشر دقائق تقدم عشرة جنود وبدأوا بإطلاق النار تجاه الأطفال. ذهلنا مما رأينا: جنود مدججون بالسلاح، مع وسائل للحماية من الرصاص على رؤوسهم وعلى أجسادهم يطلقون النار على أولاد. اتصلنا حالا مع مساعد قائد الكتيبة بنيامين، وشرح لنا ان التعليمات للجنود هي إطلاق رصاص مطاطي في الجو. قلت له إنني أرى ان إطلاق النار ليس في الهواء وإنما موجه للأولاد وان الرصاص المطاطي يمكن ان يقتل. بعد مدة قصيرة وصلت سيارة إسعاف إلى الحي وعلمنا ان الطفل عمر موسى احمد مطر قد أصيب في رأسه من إطلاق النار. تحذيراتنا للجيش بأن الامر سوف يؤدي الى قتل لم يسمعها احد، الأمر الذي لم يمنع قتل عمر.

انعكاسات على مستوى عالي

في نهاية سنة ٢٠٠٤ طالب الصحافي الاميركي من صحيفة الواشنطن بوست، جيم هوغلاند، ان يكون "شخص السنة" لمجلة تايم الاميركية (Time) هو الفدائيون الفلسطينيون الذين يفجرون أنفسهم لأنهم "استطاعوا تغيير زماننا"[٣٥] وقد لاقت هذه الظاهرة اهتماما واسعا في اوساط مختلفة ولم تقتصر فقط في الاوساط الأمنية بل انتقلت لعالم الفن والسينما العالمية. في ١٩ شباط، ٢٠٠٥ فاز فيلم "الجنة الآن" كأفضل فيلم أوروبي في مهرجان

"برلين الدولي" وهو فيلم يتحدث عن الاحداث في ال ٤٨ ساعة الأخيرة من حياة شابين فلسطينيين من نابلس يخططان للخروج إلى تل ابيب للقيام بعملية تفجيرية او سينقلبان بعد ساعات الى قنابل بشرية متحركة، من تأليف وإخراج ابن الناصرة هاني ابو اسعد الذي يسكن في هولندا. ومن اهمية هذا الفيلم انه من انتاج هولندي–ألماني–فرنسي وبعد الحصول على الجائزة احتج بعض المشاهدين وشعارهم كان: "الفلم يمجد المنتحرين القتلة." [٣٦] وقبله تم إخراج فيلم "جنين جنين" لمحمد بكري، وفلم "اولاد ارنا" من اخراج المخرج الفلسطيني الاسرئيلي جوليانو مار خميس.

نشرت صحيفة "واشنطن بوست" الاميركية (١٣ ايار، ٢٠٠٢) تقريراً مسهباً حول العمليات الفدائية الجديدة مشيرة الى استمرار التأييد لها من قبل الفلسطينيين فحين كانت نسبة التأييد لعمليات القنابل البشرية المتحركة في بداية انتفاضة القدس والأقصى من بين الفلسطينيين ٢٨٪ بلغت ٩٠٪ عام ٢٠٠٢. واقتبست الصحيفة آراء العديد من الخبراء، من بينهم العديد من الإسرائيليين حول هذه العمليات نوجزها بما يلي: ١) إنه سلاح استراتيجي بالنسبة للإرهابيين في العالم. ٢) من الصعب مواجهته والتصدي له. لانه من الصعب توقيف قنبلة بشرية. ٣) إنه لا يكلف كثيرا. ليس معقداً ولا يتطلب مراقبة وتفحصاً متواصلاً. ٤) إنه أكثر سلاح ذي دقة متوفر عند الإنسان يمكن التحكم به. ٥) من السهل إخفاؤه ومن الصعب معرفة مواصفات الشخص الذي يحمله. ٦) التجند له ليس صعباً. انه في حكم التطوع. ولا يتطلب أكثر من إثارة الغضب عند الشخص المتطوع. اصبح الفدائي المستشهد في الضفة الغربية وقطاع غزة، حركة شعبية. انه نقطة تحول في تاريخ الأعمال الإرهابية. وأضاف احد الخبراء انه يجب علينا ان ننظر الى هذا السلاح كأحد الأسلحة التي نأخذها بعين الاعتبار مثل الصواريخ والقنابل اليدوية، أو الألغام. ٧) يمكن المهاجم من استعمال كمية متواضعة من المتفجرات في مكان حساس حيث التأثير يكون كبيرا. ٨) أنه سلاح فتاك. يجذب انتباه وسائل الإعلام. ولا يتطلب خطة انسحاب من الاساس. ٩)سلاح مع رسالة. ففي إسرائيل كانت الرسالة الموجه هي ما يلي: خلق عدم أمان. ١٠) وصف قائد الشرطة الإسرائيلية الوضع في إسرائيل عام ٢٠٠٢: "total terror everywhere"..

خاتمة

تصريح الصحافي ألوف بن، في شباط ٢٠٠٥، أن شارون قد بدأ في مؤتمر شرم الشيخ في شباط ٢٠٠٥ من المكان الذي توقفت عنده المسيرة عند بداية الانتفاضة، يعني ان إسرائيل لم تحقق مكاسب مما قامت به خلال السنوات الأربع والنصف. [٣٧] وحين نأخذ بعين الاعتبار ان ٧٥٪ من الفلسطينيين يرون ان انسحاب إسرائيل الأحادي الجانب هو شهادة لانتصار الكفاح الفلسطيني، فإن ما سوف يجري، إذا لم تتدارك القيادة السياسية الإسرائيلية الأمر وتنسحب من المناطق المحتلة بمبادرة من جانبها، سوف يكون أصعب مما شهدناه بكثير. [٣٨] لقد فشلت نظرية القوة العسكرية الإسرائيلية لأنها لم تتمكن من حماية الاحتلال بدون ثمن غال. واتسع عدم الأمان بين الإسرائيليين. في تقرير القناة العاشرة على اثر عملية بئر السبع في ايلول ٢٠٠٤ قالت امرأة، شاهدة عيان: نحن نعيش في "عدم أمان كامل". وعلق احد الأسرى الإسرائيليين المحررين الذي كانوا مسجونين في أدغال كولومبيا حيث قال ردا على إحدى العمليات في تل ابيب: "قدمت من أدغال كولومبيا إلى ادغال تل ابيب." وعقب عليها بروفسور شاؤول مشعال، من جامعة تل ابيب: "الاستشهاد هو سلاح الضعيف. من السهل تجنيد الجانب الضعيف. القوي هو قوي. يجب ان نحذر الضعفاء." ما زال تصريح بنيامين بن اليعزر حين كان وزير الدفاع في إسرائيل أن هذه العمليات هي "السلاح الأكثر فتكاً الموجه ضدنا".وتصريح اسحق رابين الذي قال فيه إنه "لا نستطيع منع شخص قرر الموت"، يشكلان نقاط تحول في فهم الصراع المسلح مع الفلسطينيين. يقول اليكس فيشمان، المعلق العسكري لصحيفة يديعوت احرونوت: كل ما تمجدنا به عن مكاسب في النصف الأول من سنة ٢٠٠٤ يمكن ان يتحول في ثانية واحدة. الانتفاضة لم تنته بعد."

(الهوامش)

١ هارتس ٢٩ ايار، ٢٠٠٣

٢ النائب عزمي بشارة، يقول ان اقامة الدولة الفلسطينية قد حسم والاسرائيليون موافقون على ذلك، وقد تم هذا بفضل المقاومة والنضال الفلسطيني، ولم يعد بعد الان إلا حل مسألة الحدود والظروف التي ستقام بها الدولة الفلسطينية. مقابلة مع تلفزيون المستقبل، الثلاثاء، ٢١ كانون الثاني، ٢٠٠٣.

٣ أنظرمقال يغئال ليفي، صحيفة هارتس، ٤ شباط، ٢٠٠٥

٤ أحد هذه الكتب كان كتاب "الحرب السابعة" لمؤلفيه عاموس هرئيل وأبي يسخاروف،اصدار صحيفة يديعوت احرونوت.

٥ استعملت هذه التسمية في راديو إسرائيل، ريشت بيت، نقلا عن صحافة عبرية في ٢٣ كانون الثاني، ٢٠٠٤ الساعة ٥:٤٠ صباحا.

٦ انظر صحيفة هارتس، ٢٩ كانون الأول، ٢٠٠٢.

٧ انظر على سبيل المثال عرض كتاب "الحرب السابعة" في صحيفة هارتس، ٢٤ تشرين ثاني، ٢٠٠٤.

٨ عبر عن هذا التوجه بدقة الارشمندريت الدكتور عطا الله حنا، الناطق الرسمي باسم الكنيسة الارثوذكسية في القدس، والبلاد المقدسة حين قال: "هم يستعملون القوة ضدنا لانهم ضعفاء....المشكلة ليست موجودة عندنا بل هي موجودة عندهم... الشعب الفلسطيني يتألم، الكل يتألم ولكن رغم كل ذلك نحن متمسكون بوطننا."

٩ . حين سؤلت في اواخر ايام عام ١٩٩٩ عن توقعاتي عن الالفية الثالثة من قبل اسبوعية "بانوراما" قلت: " في هذه السنة تدخل منطقتنا عبر ابواب تغييرات استراتيجية كبيرة حيث استطاع الفلسطينيون ان يصنعوا من ضعفهم قوة."

١٠ هذا ما كتبه الصحافي الوف بن، صحيفة هارتس، ٢٦ شباط، ٢٠٠٥.

١١ استطلاع للرأي العام أجري بشكل مشترك بين المركز الفلسطيني للبحوث السياسية والمسحية (PCPRS) في رام الله وبين مركز ترومان في الجامعة العبرية في القدس. للمزيد من التفاصيل، داني روبنشتاين، هارتس، ٢١ اذار، ٢٠٠٥

١٢ صوت إسرائيل باللغة العبرية، ريشت بيت، الساعة ٦:٢٥ صباحا، في ١٤ كانون الثاني، ٢٠٠٤.

١٣ صحيفة يديعوت احرونوت، ١٢ تشرين ثاني، ٢٠٠٤

١٤ مقال تحت عنوان: ثمن الانتفاضة، نشر في موقع يديعوت احرونوت على الالكتروني Ynet.co.il في تاريخ ١٢ شباط، ٢٠٠٥.

١٥ قناة الكنيست، ١٢ شباط، ٢٠٠٥

١٦ التلفزيون الإسرائيلي، القناة الثانية، اقتبست تقريراً حول مدى الثمن التي دفعته الاطراف في الانتفاضة الفلسطينية بعد مرور ٤ سنوات على وقوعها. ١٤ تشرين ثاني، ٢٠٠٤ الساعة ٨:٣٠ مساء.

١٧ برهوم جرايسي، "تراجع الهجرة اليهودية الى إسرائيل، والمستقبل يؤكد احتمال تراجع أكبر" المشهد الإسرائيلي، رام لله، ٢٧ شباط، ٢٠٠٥.

١٨ صحيفة هارتس، ٢٢ اذار، ٢٠٠٤.

١٩ صحيفة الشرق الاوسط، ١١ حزيران، ٢٠٠٢.

٢٠ صحيفة الشرق الاوسط، ١١ حزيران، ٢٠٠٢.

٢١ هارتس، ٩ اذار، ٢٠٠٥.

٢٢ يديعوت احرونوت، ٢٣ شباط ٢٠٠٤.

٢٣ عكيبا الدار، هارتس، ٢١ شباط، ٢٠٠٥.

٢٤ هو مؤلف كتاب "جيش آخر لإسرائيل"، من إصدار "يديعوت أحرونوت"، ٢٠٠٣، ما ورد في هذا المقال يعود الى مقال للمؤلف في صحيفة "هآرتس" بتاريخ ٤ شباط ٢٠٠٥:

٢٥ يديعوت احرونوت، ١٩ تشرين الثاني، ٢٠٠٣.

٢٦ http://www.albayan-magazine.com/intifadah/intifada-int/٠٤-٤-٠٩.htm

٢٧ بثت قناة ١٠ في التلفزيون الإسرائيلي برنامجاً من غزة حول استعداد الناس للتطوع للاعمال التفجيرية (١٥ اذار، ٢٠٠٤، لساعة ٨ مساء) وذلك على اثر القاء القبض على طفل في العاشرة من عمره مستعد للانخراط. كان الاقبال كبيراً والمشهد أذهل الإسرائيليين.

٢٨ مقابلة في القناة العاشرة، الساعة الخامسة مساء، يوم السبت، ٤ تشرين الاول، ٢٠٠٣، بث مباشر على اثر عملية حيفا الفدائية حيث قامت بها هنادي تيسير جرادات في مطعم ماكسيم في حيفا.

٢٩ يديعوت احرونوت، ١٩ تشرين الثاني، ٢٠٠٣.

٣٠ مقال عبد الحكيم مفيد (٢٠٠٤)، "إعلام في الجيش" نشر في كتاب اسعد غانم ومهند مصطفى، دولة ضد مواطنيها: حالة اعتقال قادة الحركة الاسلامية"، مركز الدراسات المعاصرة، ام الفحم.

٣١ البث كان في القناة الثانية، التلفزيون الإسرائيلي، في ٢٣ ايار، ٢٠٠٣

٣٢ صحيفة هارتس، ١٢ تشرين ثاني، ٢٠٠٤، في الملحق الاسبوعي.

٣٣ هارتس، ٢٩ ايلول ٢٠٠٤.

٣٤ صحيفة هارتس، الملحق الاسبوعي، ٩ ايار، ٢٠٠٣ ص. ١٣. شمل التقرير على شهادة اخرى لجندي إسرائيلي يروي كيف قامت السلطات الإسرائيلية بإطلاق النار على فتاة في الخامسة عشرة، دون ان تقوم تلك الفتاة بتعريض الجنود للخطر ودون اتباع الاسس القانونية في مثل هذه الحالات.

٣٥ Washington Post، December ٢٦، ٢٠٠٤.

٣٦ مقال مفصل، انظر موقع WWW.ARABS48.COM بتاريخ ٢٠ شباط، ٢٠٠٥.

٣٧ هارتس، ١ اذار، ٢٠٠٥.

٣٨ استطلاع المركز الفلسطيني للبحوث السياسية والمسحية في رام الله ومعهد ترومان في الجامعة العبرية. مقال داني روبنشتاين، هارتس، ٢١ اذار، ٢٠٠٥